مشكلة الإنسانية اليوم ومقومات نهضتها -دراسة في الفكر الاجتماعي الإسلامي-

م. د عامر عبد الأمير حاتم
جامعة بغداد/ كلية التربية (ابن رشد)
قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية

مقدمة :

إن مشكلة العالم التي تملأ فكر الإنسانية اليوم وتمسّ واقعها بالصميم هي مشكلة النظام الاجتماعي التي تتلخص في إعطاء أصدق إجابة على السؤال الآتي: ما هو النظام الذي يصلح للإنسانية وتسعد به في حياتها الاجتماعية؟

ومن الطبيعي أن تحتل هذه المشكلة مقامها الخطير، وأن تكون في تعقيدها وتنوّع ألوان الاجتهاد في حلها مصدراً للخطر على الإنسانية ذاتها؛ لأن النظام داخل في حساب الحياة الإنسانية ومؤثر في كيانها الاجتماعي بالصميم .

وتتجلى هذه المشكلة على طول تاريخها الطويل في طبيعة الصراع بين المصالح الذاتية الخاصة والمصالح الاجتماعية العامة، وقد بعث الله سبحانه الأنبياء لنقل البشرية إلى مراحل متقدمة من الوعي والتبصر على رسالة الإنسان في الحياة وإفهامه بأهداف وجوده وغاياته، وإيضاح دوافع بناء الحياة واستثمارها له، ليتم بذلك توجيهه وربطه بالله I وبالآخرة، فيتم القضاء على ذلك الصراع المرير بين المصلحتين المتناقضتين، وخلق الانسجام التام بينهما، إذ إن تلك العلاقة وذلك الربط كفيل بتطوير مفهوم الإنسان المجبول على حب الذات والسعي الشديد باتجاه مصالحه الخاصة، تطويراً يزيل الصراع وينهي المشكلة، فلولا السماء لقاست البشرية تأريخاً فيه ألوان رهيبة وصور قاسية لهذه المشكلة أقسى مما مر بها، وما تواجهه الإنسانية اليوم من مظالم الإنسان واعتداء على أخيه، ليس إلا صور متعددة لمشكلة واحدة تتمثل بانحراف الفطرة عن رسالة دين التوحيد الخالص المتمثل بالاسلام الحنيف .

إن لهذه الحقيقة علاقة بصميم مقومات الحضارة في التاريخ، حيث سيتبين لنا أن الحضارات البشرية لم تستطع أن تحل المشكلة الاجتماعية، التي تواجه البشرية، ولكن الحضارات ذات المصدر الإلهي استطاعت أن تحدد طبيعة المشكلة ووضع العلاج الناجع لها، كما سنرى ذلك في أفكار وآراء المفكر الإسلامي الإمام الصدر ومنهجه الذي تبناه في تحليل ومتابعة ولادة الحضارات والكشف عن عوامل استمرارها ونموها وأسباب انحطاطها.

المشكلة الاجتماعية

مشكلة الإنسانية منذ فجر التاريخ تتمثل بالصراع بين الإنسان وسعيه الحثيث لتحقيق الوضع الأفضل لمصالحه الخاصة، وبين المصالح الاجتماعية العامة، وبعبارة أخرى إنه صراع بين منافع الجماعة ومصالحها وبين حب الذات الغريزة الأم في النفس الإنسانية نتيجة للميل الفطري باتجاه اللذة والسعادة والابتعاد بنفس الاتجاه عن الألم والشقاء، لذا قد يضع حداً لحياته بالانتحار إذا وجد أن تحمُّل ألم الموت أسهل عليه من تحمُّل الآلام التي تزخر بها حياته [1].

إنَّ فهماً بعيداً عن طبيعة الأشياء يرى أن المجتمع الأفضل هو الذي يعيش أفراده كما يشاءون ودون أي رعاية لطبيعة العلاقات الاجتماعية بينهم، أو اهتمام بأفكار تحدد مسارهم وتوحد أهدافهم، ولكن مجتمعاً مثل هذا يكون مجتمعاً بدائياً أو أعجز من أن يقوم بأي مهمة تاريخية أو حضارية، بسبب التناقض الصارخ بين مصالح أفراده، وهكذا يكون حال كل مجتمع إذا كان يعيش بلا نظام إذ يكون مجموعة من الأفراد المكدَّسين قبل أن يكون بناءً اجتماعياً يملك عناصر مشتركة مقدسة متفق عليها.

إن قيمة المجتمع إنما هي بوجود الفكرة والعقيدة أو الرسالة الجامعة لأفراده، وبطبيعة متبنيات تلك الرسالة ودرجة سموها، فالرسالة السماوية الحقة تكرس مفاهيم الحق والعدل والخلق الإنساني من خلال حضارتها، والنظم الاجتماعية الوضعية تكرس ما ينسجم مع مفاهيمها، ((فالقضية إذن ليست قضية تكديس الأفراد فنسمّي كل تكديس مجتمعاً))[2]، أو البناء العمراني والمدني، ولا هي مشكلة التقدم العلمي أو معالجة مظاهر التخلف الجزئية أو استيراد احد المناهج الغربية أو الشرقية في بناء الحياة، ولا يكمن الحل في تكديس الأموال أو وسائل الانتاج المتطورة وأتباع نمط التنمية الأنسب، أو رسم الخطط الأقرب إلى طبيعة

المجتمع والإمكانات المتاحة، أو في طريقة توزيع الثروة أو الانتاج، فالمشكلة أكبر من ذلك وأعمق، فهي مشكلة التناقض الصارخ بين المصالح الخاصة للإنسان والمصالح العامة (الاجتماعية)، فذلك التناقض هو مصدر الشرور في المجتمع، ويكمن الحل في سيادة الفكرة الكفيلة بالقضاء على مصدر الشرور في النفس الإنسانية، بخلق التوازن مع مصالح المجتمع، ولا يكفي في العلاج أن نعرف أن حب الذات هو مصدر المشكلة، بل إن وجود الدافع لحل المشكلة من داخل النفس هو القضية الأهم والأصعب .

نحن إذن وفي هذا الضوء نشعر بحاجة لا إلى اكتشاف النظام الأصلح لمجموع الإنسانية فحسب، بل إلى دافع يجعلنا نعتني بمصالح الإنسانية ككل ونسعى إلى تحقيقها وإنْ اختلفت مع مصالح الجزء الذي نمثله من ذلك الكل [3].

إن حب الذات أو منطق المصلحة الخاصة عندما يتحرك في الفرد لابد له من أن يعتدي- إذا بقي بدون تطوير أو حل لمشكلته- على المصالح الاجتماعية للآخرين، وهذا هو مصدر الشرور جميعاً في الحياة الإنسانية إلى اليوم، وغريزة حب الذات هذه إنما هي نتيجة للميل الطبيعي الذي فطرت عليه النفس الإنسانية، وهي محور تتفرع عنه كل الغرائز الأخرى، فـ ((الذي يكمن وراء الحياة الإنسانية كلها ويوجهها بأصبعه هو حب الذات، الذي نعبّر عنه بحب اللذة وبغض الألم))[4].

نريد الآن – وقد عرفنا المشكلة- أن نلقي نظرة على ما تملكه الإنسانية اليوم، وفي كل زمانٍ من الامكانات والشروط الضرورية لإعطاء الجواب الصحيح للمشكلة الاجتماعية، ويرتبط الجواب على ذلك بالمفهوم العام عن الكون والمجتمع، ولذلك تختلف طريقة معالجتها من قبل الباحثين تبعاً لاختلاف مفاهيمهم العامة عن ذلك، ولنبدأ بالرأسمالية:

الرأسمالية والمشكلة

إن النظام الرأسمالي نظام مادي خالص، أُخذ فيه الإنسان منفصلاً عن مبدئه وآخرته، محدوداً بالجانب النفعي من حياته المادية، ولهذا تبنّى فكرة المصلحة المادية الخاصة باعتبارها تمثل دافعاً قوياً لضمان مصالح الفرد القائمة على أساس مبدأ التنافس وإطلاق الحريات، فأطلق العنان لمصدر الشرور ((غريزة حب الذات)) في المجتمع، فالإنسان في النظام الرأسمالي إذا آمن بأن مبدأه الوحيد في هذا الوجود العظيم هو حياته

المادية الخاصة، وآمن أيضاً بحريته في التصرف بهذه الحياة واستثمارها، وأنه لا يمكن أن يكسب من هذه الحياة غايةً إلا اللذة التي توفرها له المادة، وأضاف هذه العقائد المادية إلى مصدر الشرور ((حب الذات))[5]، فسوف يسلك سبيل الاستغلال والاحتكار والتعدي وأشكال الاستعمار للشعوب ونهب الثروات والاعتداء على الحقوق وأساليب الخداع والغش والقتل ومختلف الجرائم اللاإنسانية . فكل هذه المآسي المروعة لم تنشأ من الملكية الخاصة كما ينظر الماركسيون إلى النظام الرأسمالي، وإنما هي وليدة المصلحة المادية الشخصية التي جعلت مقياساً للحياة والمبرر المطلق لجميع التصرفات والمعاملات. لقد قامت الرأسمالية على الإيمان بالفرد إيماناً لا حد له، وبأن مصالحه الخاصة بنفسها تكفل – بصورة طبيعية – مصلحة المجتمع في مختلف الميادين، وأن فكرة الدولة إنما تستهدف حماية الأفراد ومصالحهم الخاصة[6]، فعلى هذه الأسس تبنت الرأسمالية إطلاق الحريات الأربع: السياسية، الاقتصادية، الفكرية، والشخصية، وأقامت نظاماً مادياً حددت فيه حياة الإنسان المادية بالجانب النفعي بعيداً عن النظرة المحددة للحياة والكون والإنسان، فتركت مصلحة الإنسان تعبث في الحياة دونما أي رادع أخلاقي، وقد اعترف المذهب الرأسمالي بفطرية غريزة حب الذات، ولذلك فإنه انطلق في تحريك الإنسان على صعيد البناء والتنمية على ضوء دوافع ومصالح الإنسان الشخصية، فقدم للبشرية هذا البناء المادي الجبار، مقابل الانحطاط الروحي والاخلاقي.

وقدِّر بنفسك نصيب المجتمع الذي يقوم على ركائز هذا النظام ومفاهيمه من السعادة والاستقرار، هذا المجتمع الذي ينعدم فيه الإيثار والثقة المتبادلة، والتراحم والتعاطف الحقيقي، وجميع الاتجاهات الروحية الخيّرة، فيعيش الفرد فيه وهو يشعر بأنه المسؤول عن نفسه وحده، وأنه في خطر من قبل كل مصلحةٍ من مصالح الآخرين التي قد تصطدم به، فكأنه يحيى في صراع دائم ومغالبة مستمرة لا سلاح له فيها إلا قواه الخاصة، ولا هدف له منها إلا مصالحه الخاصة [7].

رأي الماركسية في حل المشكلة

أن يبدَّل الإنسان غير الإنسان، أو تُخلق فيه طبيعة جديدة تجعله يضحي بمصالحه الخاصة، ومكاسب حياته المادية المحدودة في سبيل المجتمع ومصالحه، مع إيمانه بأنه لا

قيم إلا قيم تلك المصالح المادية، ولا مكاسب إلا مكاسب هذه الحياة المحدودة. وهذا إنما يتمّ إذا انتزع من صميم طبيعته حب الذات وأُبدل بحب الجماعة، فيولد الإنسان وهو لا يحب ذاته إلا باعتبار كونه جزءاً من المجتمع، ولا يلتذ لسعادته ومصالحه إلا بما أنها تمثل جانباً من السعادة العامة ومصلحة المجموع. فإن غريزة حب الجماعة تكون ضامنة حينئذ للسعي وراء مصالحها وتحقيق متطلباتها بطريقة ميكانيكية وأسلوب آلي [8].

وهذا الرأي هو الذي يحلم أقطاب الشيوعيين بتحقيقه للإنسانية في مستقبلها، ويعِدون العالم بأنهم سوف ينشئونها إنشاءً جديداً يجعلها تتحرك ميكانيكياً إلى خدمة الجماعة ومصالحها. ولأجل أن يتم هذا العمل الجبار يجب أن نوكل قيادة العالم إليهم، كما يوكل أمر المريض إلى الجّراح ويفوَّض إليه تطبيبه وقطع الأجزاء الفاسدة منه، وتعديل المعوج منها، ولا يعلم أحدٌ كم تطول هذه العملية الجراحية التي تجعل الإنسانية تحت مبضع جرّاح؟

والفكرة في هذا الرأي القائل بمعالجة المشكلة عن طريق تطوير الإنسانية وإنشائها من جديد، ترتكز على مفهوم الماركسية عن حب الذات. فإن الماركسية تعتقد أن حب الذات ليس ميلاً طبيعياً وظاهرة غريزية في كيان الإنسان، وإنما هو نتيجة للوضع الاجتماعي القائم على أساس الملكية الفردية [9]، فإن الحالة الاجتماعية للملكية الخاصة هي التي تكوِّن المحتوى الروحي والداخلي للإنسان، وتخلق في الفرد حبه لمصالحه الخاصة ومنافعه الفردية، فإذا حدثت ثورة في الأسس التي يقوم عليها الكيان الاجتماعي، وحلَّت الملكية الجماعية والاشتراكية محل الملكية الخاصة، فسوف تنعكس الثورة في كل أرجاء المجتمع، وفي المحتوى الداخلي للإنسان، فتنقلب مشاعره الفردية إلى مشاعر جماعية، ويتحول حبه لمصالحه ومنافعه الخاصة إلى حب لمنافع الجماعة ومصالحها، وفقاً لقانون التوافق بين حالة الملكية الأساسية ومجموع الظواهر الفوقية التي تتكيَّف بموجبها[10].

ويمكن مناقشة الرؤية الماركسية هذه بـ:

أولاً: إن هذا المفهوم الماركسي لحب الذات يقدّر العلاقة بين الواقع الذاتي ((غريزة حب الذات)) وبين الأوضاع الاجتماعية بشكل مقلوب، وإلا فكيف نستطيع أن نؤمن بأن الدافع الذاتي وليد الملكية الخاصة والتناقضات الطبقية التي تنجم عنها؟! فإن الإنسان لو لم يكن يملك سلفاً الدافع الذاتي لما أوجد هذه التناقضات، ولا فكَّر في الملكية الخاصة

والاستئثار الفردي، ولماذا يستأثر الإنسان بمكاسب النظام ويضعه بالشكل الذي يحفظ مصالحه على حساب الآخرين مادام لا يحس بالدافع الذاتي في أعماق نفسه؟!

فالحقيقة أن المظاهر الاجتماعية للأنانية في الحقل الاقتصادي والسياسي لم تكن إلا نتيجة للدافع الذاتي لغريزة حب الذات، فهذا الدافع أعمق منها في كيان الإنسان، ولا يمكن أن يزول وتقتلع جذوره بإزالة تلك الآثار، فإن عملية كهذه لا تعدو أن تكون استبدالاً لآثارٍ بأخرى قد تختلف في الشكل والصورة، لكنها معها في الجوهر والحقيقة.

ثانياً: أنّا لو فسرنا الدافع الذاتي ((غريزة حب الذات)) تفسيراً موضوعياً، بوصفه انعكاساً لظواهر الفردية في النظام الاجتماعي، كظاهرة الملكية الخاصة – كما صنعت الماركسية– فلا يعني هذا أن الدافع الذاتي سوف يفقد رصيده الموضوعي وسببه من النظام الاجتماعي بإزالة الملكية الخاصة ؛ لإنها وإنْ كانت ظاهرة ذات طابع فردي، ولكنها ليست هي الوحيدة من نوعها.

فهناك –مثلاً– ظاهرة الإدارة الخاصة التي يحتفظ بها حتى النظام الاشتراكي، فإن النظام الاشتراكي وإن كان يلغي الملكية الخاصة لوسائل الانتاج غير أنه لا يلغي إدارتها الخاصة من قبل هيئات الجهاز الحاكم الذي يمارس دكتاتورية البروليتاريا، ويحتكر الأشراف على جميع وسائل الانتاج وإدارتها ؛ إذ ليس من المعقول أن تدار وسائل الانتاج في لحظة تأميمها إدارة جماعية إشتراكية من قبل أفراد المجتمع كافة .

فالنظام الاشتراكي يحتفظ إذن بظواهر فردية بارزة، ومن الطبيعي لهذه الظواهر الفردية أن تحافظ على الدافع الذاتي وتعكسه في المحتوى الداخلي للإنسان باستمرار، كما كانت تصنع ظاهرة الملكية الخاصة [11].

وهكذا نعرف قيمة الرأي الماركسي الذي يعتبر إلغاء تشريع الملكية الخاصة ومحوها من سجل القانون كفيلاً وحده بحل المشكلة وتطوير الإنسان .

رأي الإسلام في حل المشكلة

إن السبيل الذي سلكه الإسلام، إيماناً منه بأن الحل الوحيد للمشكلة يكمن في تطوير المفهوم المادي للإنسان عن الحياة ، فلم يأت إلى مبدأ الملكية الخاصة ليبطله، وإنما غزا المفهوم المادي عن الحياة ووضع للحياة مفهوماً جديداً، وأقام على أساس ذلك المفهوم نظاماً

لم يجعل فيه الفرد آلة ميكانيكية في الجهاز الاجتماعي، ولا المجتمع هيئة قائمة لحساب الفرد، بل وضع لكل منهما حقوقه، وكفل للفرد كرامته المعنوية والمادية معاً.

فالإسلام وضع يده على نقطة الداء الحقيقية في النظام الاجتماعي، فمحاها محواً ينسجم مع الطبيعة الإنسانية . فإن نقطة الارتكاز الأساسية – لما ضجت به الحياة البشرية من أنواع الشقاء وألوان المآسي، هي النظرة المادية إلى الحياة التي تختصرها بعبارة مقتضبة في : افتراض حياة الإنسان في هذه الدنيا هي كل ما في الحساب من شيء، وإقامة المصلحة الشخصية مقياساً لكل فعالية ونشاط[12].

إن الديمقراطية الرأسمالية نظام محكوم عليه بالانهيار والفشل المحقق في نظر الإسلام، ولكن لا باعتبار ما يزعمه الاقتصاد الشيوعي من تناقضات رأس المال بطبيعته، وعوامل الفناء التي تحملها الملكية الخاصة في ذاتها؛ لأن الاسلام يختلف في طريقته المنطقية، واقتصاده السياسي، وفلسفته الاجتماعية عن مفاهيم هذا الزعم وطريقته الجدلية، ويضمن وضع الملكية الفردية في تصميم اجتماعي خالٍ من تلك التناقضات المزعومة.

بل إن مردّ الفشل والوضع الفاجع الذي منيت به الديمقراطية الرأسمالية– في عقيدة الإسلام– إلى مفاهيمها المادية الخالصة التي لا يمكن أن يسعد البشر بنظام يستوحي جوهره منها، ويستمد خطوطه العامة من روحها وتوجيهها.

فلابد إذن من معين آخر– غير المفاهيم المادية عن الكون– يستقي منه النظام الاجتماعي، ولابد من وعي سياسي صحيح ينبثق عن مفاهيم حقيقية للحياة، ويتبنى القضية الإنسانية الكبرى، ويسعى إلى تحقيقها على قاعدة تلك المفاهيم، ويدرس مسائل العالم من هذه الزاوية. وعند اكتمال هذا الوعي السياسي في العالم، واكتساحه لكل وعي سياسي آخر، وغزوه لكل مفهوم للحياة لا يندمج بقاعدته الرئيسية، يمكن أن يدخل العالم في حياة جديدة مشرقة بالنور عامرة بالسعادة.

إن هذا الوعي السياسي العميق هو رسالة السلام الحقيقي في العالم، وإنّ هذه الرسالة المنقذة لهي رسالة الإسلام الخالدة التي استمدت نظامها الاجتماعي من قاعدة فكرية جديدة للحياة والكون [13].

وقد أوجد الإسلام بتلك القاعدة الفكرية النظرة الصحيحة للإنسان إلى حياته، فجعله:

1- يؤمن بأن حياته منبثقة عن مبدأ مطلق الكمال .

2- وأنها إعداد للإنسان إلى عالم لا عناء فيه ولا شقاء .

3- ونصب له مقياساً خلقياً جديداً في كل خطواته وأدواره، وهو: رضا الله تعالى.

فليس كل ما تفرضه المصلحة الشخصية فهو جائز، وكل ما يؤدي إلى خسارة شخصية فهو محرم غير مستساغ، بل الهدف الذي رسمه الإسلام للإنسان في حياته هو الرضا الالهي، والمقياس الخلقي الذي توزن به جميع الأعمال إنما هو مقدار ما يحصل بها من هذا الهدف المقدس، والإنسان المستقيم هو الإنسان الذي يحقق هذا الهدف، والشخصية الإسلامية الكاملة هي الشخصية التي سارت في شتى أشواطها على هدى هذا الهدف، وضوء هذا المقياس، وضمن إطاره العام[14].

وليس هذا التحويل في مفاهيم الإنسان الخلقية وموازينه وأغراضه يعني تغيير الطبيعة الإنسانية، وانشاءها إنشاءً جديداً كما كانت تعني الفكرة الشيوعية . فحب الذات – أي حب الإنسان لذاته وتحقيق مشتهياتها الخاصة- طبيعي في الإنسان .

ولا نعرف استقراءً في ميدان تجريبي أوضح من استقراء الإنسانية في تاريخها الطويل الذي يبرهن على ذاتية حب الذات، بل لو لم يكن حب الذات طبيعياً وذاتياً للإنسان لما اندفع الإنسان الأول قبل كل تكوينة اجتماعية إلى تحقيق حاجاته، ودفع الأخطار عن ذاته، والسعي وراء مشتهياته بالأساليب البدائية التي حفظ بها حياته وأبقى وجوده، وبالتالي خوض الحياة الاجتماعية والاندماج في علاقات مع الآخرين تحقيقاً لتلك الحاجات، ودفعاً لتلك الاخطار، ولما كان حب الذات يحتل هذا الموضع من طبيعة الإنسان.

فأي علاج حاسم للمشكلة الإنسانية الكبرى يجب أن يقوم على أساس الايمان بهذه الحقيقة، وإذا قام على فكرة تطويرها أو التغلب عليها فهو علاج مثالي لا ميدان له في واقع الحياة العملية التي يعيشها الإنسان [15].

إن هذه المهمة لا يستطيع أي نظام أرضي وضعي أن يقوم بأعبائها؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، والسماء هي المصدر الوحيد الذي حين يرتبط الإنسان بها، فإنه يرتبط بالله تعالى وبمصدر الجزاء والحساب في الآخرة، ومن هنا فإن هذا الفهم الجديد للحياة يعوض الإنسان عن كل ما يخسره في الحياة الدنيا من مصالح خاصة، وما يقدم من تضحيات وما يدفع من ضرائب في سبيل مجتمعه وعقيدته وأهدافه العليا ؛ لأن ذلك سوف يصب في ذات

مصلحته وحبه لحياته وميله الفطري نحو اللذة والابتعاد عن الألم، إذ إن هذا الإيمان بالله والفهم الجديد للحياة سيغير بشكل جذري مقياس المصلحة في نفسه، فتتوازن مصالحه الخاصة ومصالح المجتمع والاهداف العليا في بناء الحياة، فيشكلان خطاً مستقيماً واحداً أو خطين متوازيين بدل أن يكونا متقاطعين كما هو الامر في فكرة البناء الرأسمالي والماركسي على حد سواء كما تقدم ؛ ويقوم الدين بهذه المهمة من خلال أسلوبين:

الأول : هو تركيز التفسير الواقعي للحياة وإشاعة فهمها في لونها الصحيح كمقدمة تمهيدية إلى حياة أخروية يكسب الإنسان فيها من السعادة على مقدار ما يسعى في حياته المحدودة هذه في سبيل تحصيل رضا الله . فالمقياس الخلقي- أو رضا الله تعالى- يضمن المصلحة الشخصية في نفس الوقت الذي يحقق فيه أهدافه الاجتماعية الكبرى [16] . ولا يمكن أن يحصل هذا الأسلوب من التوفيق في ظل فهم مادي للحياة، فإن الفهم المادي للحياة يجعل الإنسان بطبيعته لا ينظر إلا إلى ميدانه الحاضر وحياته المحدودة، على عكس التفسير الواقعي للحياة الذي يقدّمه الإسلام فإنه يوسِّع من ميدان الإنسان، ويفرض عليه نظرة أعمق إلى مصالحه ومنافعه، ويجعل من الخسارة العاجلة ربحاً حقيقياً في هذه النظرة العميقة، ومن الأرباح العاجلة خسارة حقيقية في نهاية المطاف **[إِنَّ اللَّـهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّـهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ]**[17] .

الثاني : هو التعهد بتربية أخلاقية خاصة، تعني بتغذية الإنسان روحياً، وتنمية العواطف الإنسانية والمشاعر الخلقية فيه . فإنّ في طبيعة الإنسان طاقاتٍ واستعداداتٍ لميول متنوعة، بعضها ميول مادية تتفتح شهواتها بصورة طبيعية، كشهوات الطعام والشراب والجنس، وبعضها ميول معنوية تتفتح وتنمو بالتربية والتعاهد . والدين باعتباره يؤمن بقيادة معصومة مسددة من الله فهو يوكل أمر تربية الإنسانية وتنمية الميول المعنوية فيها إلى هذه القيادة وفروعها، فتنشأ بسبب ذلك مجموعة من العواطف والمشاعر النبيلة، ويصبح الإنسان يحب القيم الخلقية والمثل التي يربيه الدين على احترامها، ويستبسل في سبيلها [18] .

طبيعة العلاقة بين المشكلة الاجتماعية ومشكلة الحضارة:

على ضوء ما تقدم من خلال الاستدلال على عجز الأنظمة الوضعية على تحريك قيم الإنسان الأخلاقية والإنسانية في تجسيد رسالة الخير في العالم، بالاستناد لأساسٍ يُعتمد عليه : هو أن الإنسان يمكن أن يندفع في بناء الحضارة بدوافع مصلحية مادية ولأهداف دنيوية محدودة ضيقة، تلك هي دوافع حب الذات واللذة والمنفعة، وإذا كانت المشكلة في وجود العلاقات بين أفراد المجتمع باعتبار أن العلاقة لا يمكن أن تُبنى إلا من خلال دوافع سماوية كما يتبنى ذلك المفكر الإسلامي مالك بن نبي (19)، ففي معالجة المشكلة الاجتماعية اكتشفنا أن دوافع اللذة والمصلحة إنما هي دوافع فطرية، ودور الرسالة السماوية يتمثل في تطوير المفهوم عن الحياة واللذة والمصلحة بشكل يضع الدواء على الداء، ويضع التزاوج والانسجام الكامل بين المصلحتين من خلال ربط الإنسان بالله وبالآخرة . وسؤالنا: إنه إذا تُركت تلك الدوافع الفطرية بدون تطوير وفهم جديد للحياة، هل ستكون عاجزة عن بناء الحياة على ضوء نظريات مادية إلحادية وضعية مختلفة وفق برنامج اجتماعي ونظام حكم يتبنى صيغة فكرية لبناء الحضارة كما حصل في حضارة الرومان واليونان، أو كما هو الحال في الحضارة الرأسمالية والاشتراكية الماركسية ؟ والدراسة على هذا الأساس تتضمن باختصار صورة عن مرتكزات المنهج للإمام محمد باقر الصدر، وتوضيح معالمه بالجهد الممكن .

منهج الإمام الصدر في نشوء الحضارات وانحطاطها:

إن الفكر الاجتماعي للإمام الصدر تمت صياغته ضمن إشكالية العلاقة بين العقل والنص والواقع، حيث كان يطرح القضايا الاجتماعية من موقع الاستجابة الإسلامية لمستجدات العصر وتحديات الحضارة الغربية . فهو لم يُخضِع الشريعة للواقع أي للإنتاج القيمي والمفهومي للتفاعلات الاجتماعية المنفصلة عن شريعة الله ؛ لأن الواقع بابتعاده عن هدى الله هو واقع فاسد بالنسبة إليه .

وهذا لا يعني أن منهجية الإمام الصدر هي منهجية أحادية الجانب، تنطلق من النص دون أي اعتبار للواقع، بل على العكس فالفكر الاجتماعي- السياسي لديه، من حيث هو فكر اجتهادي، يعطي للواقع كل ثقله شريطة أن لا تخرج عملية التنظير عن الثوابت

الإسلامية . وهنا تتجلى ثورية الفكر الاجتماعي المعتمد على هذا المنهج حيث إن استجابة المفاهيم الاجتماعية والسياسية لحركة الواقع تكون دائماً من موقع تأثير الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة في حركة الواقع لا إضفاء المشروعية عليها وتبريرها .

وهكذا فالفكر الاجتماعي الإسلامي الذي صاغه الإمام الصدر هو فكر تحويل لا فكر تبرير . فكل محاولة للتقدم والخروج من التخلف ليست في جوهرها – انطلاقاً من هذا المنهج– إلا الرجوع إلى النص وإلى عصر الرسالة، أي إعادة الانتماء للحضارة الإسلامية في مسارها السابق على الانحراف [20] .

فالإمام الصدر حدد مفهوم الفكر الإسلامي بوضوح ودقة، وطرح البديل الإسلامي على الصعيد النظري والمنهجي . فالعقلانية المرتبطة بالنص هي عقلانية مفتوحة تتمتع بقوة لاستيعاب مستجدات الحركة التاريخية، فهي ليست مجرد عقلانية خطابية، أو عقلانية مريحة تنمو في عالم المجردات .

والفكر الاجتماعي – السياسي المؤهل لإعادة بناء الأمة والحضارة الإسلامية هو ذلك الفكر الذي يرتبط ارتباطاً كلياً بالنص، وتتم صياغته في اطار العقلانية الإسلامية .

ومن هذا المنطلق انتقد الإمام الصدر النظامين (الرأسمالي والاشتراكي) اللذين ينفيان كل مبدأ متعالي في علاج المشكلة الاجتماعية، فلا علاقة– حسب هذين النظامين– للمسألة الاجتماعية بالميتافيزيقية . حيث يرى أن سبب ضعفهما يكمن في هذه النقطة بالذات، فغياب مبدأ متعالي جعل هذين النظامين يسيران في طريق نحو المجهول، فالرؤية المادية إلى الكون والإنسان تشكل العامل المشترك في النظامين معاً، وهذا ما دفع بالحضارة الغربية إلى أزمة قاتلة ؛ لأن المادة تعني التشتت والصراع على مستوى الأفراد وعلى مستوى الشعوب، فلا يمكن للغرب أن يقيم علاقات إنسانية مع شعوب العالم على أساس اقتصادي وحده، فالاقتصاد يؤدي إلى تضارب المصالح وإلى الصراع (الاستعمار والتبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية) فالعلاقات الإنسانية لا يمكن أن تؤسس على القوة المادية كالاقتصاد والصناعة ؛ لأن المادة لا يمكن أن تكون معياراً لعلاقة الإنسان مع الإنسان، فالمادة متغيرة، فالقوي اليوم قد يصبح ضعيفاً غداً . فالغرب يسعى إلى فرض حضارته بالقوة باسم تفوقه المادي، فعملية (تحضير الشعوب) هي في كثير من جوانبها مجرد تبرير أخلاقي للقوة

المادية [21]، وهنا يطرح الإمام الصدر مفهوم ((الأمة الشهيدة)) كمفهوم يتجاوز النموذج الحضاري الغربي ؛ لأن الأمة لا ترتكز في علاقتها مع شعوب العالم على المادة (الاقتصاد، العرق ...) بل على قيم روحية ترفع الأمة الى مستوى الكونية، والقدرة على استيعاب الشعوب والحضارات داخل مبدأ الوحدة في التنوع، فاستيعاب الأمة للشعوب ليس من قبيل عملية ((التحضير)) الغربية التي تجسدت عن طريق الاستعمار وعن طريق إبادة الأقليات، بل استيعاب الأمة للشعوب ينطلق من قيم روحية وأخلاقية تحترم إنسانية الإنسان، ولا تنفي خصوصيات الشعوب والثقافات، بل لتعطيها معنىً جديداً عن طريق ربطها بالله، فالبشرية كلها تسعى نحو الله سبحانه، فبدلاً من دكتاتورية البروليتاريا وبدلاً من الضمير الجمعي كما طرحه علماء الاجتماع، حيث إن في كلتا الحالتين يذوب الفرد في كلٍّ أكبر منه، فبدلاً من كل ذلك فإن الأفراد يستوعبون مفهوم الأمة عن اقتناع داخلي يأخذ صورة الواجب الشرعي وصورة العبادة عند المسلمين، ويأخذ صورة القيمة الأخلاقية والحضارية عند غير المسلمين انطلاقاً من مبدأ قرآني ((التعارف))[22] .

لقد استنطق الإمام الصدر التاريخ وحلله في كلّ كتاباته، وقد كان هذا التحليل يسعى إلى الوصول في الكشف عن عوامل النهضة والانحطاط . وكان يسعى إلى الكشف عن الأرضية التي جعلت المسلمين يشيدون حضارة رائدة . إن هذه المقاربة للتاريخ ليست من نوع الدراسات التمجيدية، بل هي مقاربة هدفها تمييز عناصر القوة من عناصر الضعف في تاريخ الأمة، أي التمييز بين الخط الرسالي والخط المنحرف الذي ابتليت به الأمة .

شروط الحضارة عند الإمام الصدر

وتتكون من ثلاثة شروط :

1- الفكرة أو ((المبدأ))

2- القائد المنقذ

3- التفاعل الاجتماعي

أولاً :- الفكرة أو ((المبدأ))

تناول الإمام الصدر مشكلة الحضارة كما أعتقد من خلال تصور واسع وشامل، يفيد أن أساس كل حضارة إنما هي الفكرة أو المعرفة حيث قال : ((إن المحتوى الداخلي للإنسان

هو الأساس لحركة التاريخ، والبناء الاجتماعي العلوي بكل ما يضم من علاقات وأنظمة وأفكار، مرتبط بهذا الأساس . هذا المحتوى يتكون من جانب فكري يضم تصورات الهدف، وجانب الارادة التي تحفز الإنسان نحو هذا الهدف، وبالامتزاج بين الفكر والإرادة تتحقق فاعلية المستقبل ومحركيته للنشاط التاريخي على الساحة الاجتماعية))[23] .

ولهذا طرح الإمام الصدر في هذا السياق نظرية المعرفة التي تتمتع بالقوة الاستيعابية، والتي تسمح لها بتوجيه التاريخ . وهي نظرية تربط العقل بالغيب[24]، لا من موقع لاهوتي بمفهوم النظرية اللاهوتية، بل من موقع انفتاح العقل على المطلق . كما أن نظرية المعرفة عند الإمام الصدر تعتمد على المبادئ والمفاهيم الدينية التي مصدرها القرآن والسنة الشريفة كأدوات استكشافية توجِّه العقل في تنظيره للحياة الاجتماعية .

فالاتجاه في منهج الإمام الصدر، يشير إلى أن الحضارة الحقيقية والإنسانية المجسدة لرسالة الخير في العالم، لا يمكن أن تشيد إلا من خلال كلمة الله ورسالته المنقذة: **[قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً]**[25] . ولا ينفي (الصدر) في ذات الوقت إمكانية قيام حضارة أخرى لا تمثل رسالة الحق على ضوء متبنياتها المادية أو المصلحة الخاصة .

ثانياً : القائد المنقذ

إن أي اتجاه عقائدي في العالم يريد أن يبني الإنسان من جديد في إطاره، ويريد أن ينشئ للإنسانية معالم جديدة فكرية وروحية واجتماعية، يُشترط لأن ينجح ... أن يكون القائد الذي يمارس تطبيق هذا الاتجاه معصوماً، أي منفعلاً انفعالاً كاملاً بالرسالة [26] ، تلك القيادة التي تمكّن الفكرة في نفوس الأمة وتجمعهم على أساسها وتوحد جهودهم للسير إلى الأهداف المرسومة، فلولا وجود القيادة الكفوءة والقادرة على الفعل الحضاري، فإن الجهود تبقى مبعثرة مشتتة متناحرة، وأحياناً غير قادرة على امتلاك الفعل الحضاري الذي يتطلب حركة جماعية دؤوبة ونشيطة كخلية النحل، وبنظام دقيق وطاعة الجميع للأوامر الصادرة .

ووجود القيادة على رأس الهرم، سنّة كونية واجتماعية وحياتيه، ابتداءاً من خالق الوجود الواحد الاحد الفرد الصمد : **[لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا]**[27]، إلى رئاسة

الدولة والعائلة مروراً بالدليل الذي تهتدي إليه الحيوانات في عالم الهجرة والعمل وما إلى ذلك .

والدين باعتباره يؤمن بقيادة معصومة مسددة من الله فهو يوكل أمر تربية الإنسانية وتنمية الميول المعنوية فيها إلى هذه القيادة التي ليس لها أي قصد سوى إصلاح الأوضاع والأحوال الاجتماعية وهداية الناس إلى ما فيه صلاحهم وخيرهم وسعادتهم وكمالهم المادي والمعنوي والدنيوي والأخروي [28] .

ثالثاً : التفاعل الاجتماعي

إن إيمان وتفاعل الأمة مع الفكرة والقائد، والانطلاق معهما بقوة شرط أساس لتحقيق وضع حضاري على الأرض، بعد فهم الأمة للفكرة المتبناة وإدراكها للمفاهيم المطروحة .

لقد صاغ الإمام الصدر فلسفة اجتماعية وسياسية لتغيير الواقع ولإعادة بناء الحضارة الإسلامية، وجعل معنى الوجود [29] أساساً لعملية التغيير، كما أنه أعاد صياغة العلاقة بين العقل والدين من موقع اطلاقية الدين ونسبية العقل ونسبية الفلسفة، وإعادة – تبعاً لذلك– صياغة مفهوم الخاصة ومفهوم العامة، حيث جعل الجماهير عاملاً رئيساً وحاسماً في عملية التغيير، فالإمام الصدر انطلق من مفهوم قرآني هو مفهوم المستضعفين[30]، الذي يستقطب عملية التغيير وعملية اعادة بناء الحضارة الإسلامية[31].

من الجدير بالذكر أن الأمة الإسلامية لا يمكن أن تتفاعل مع المناهج الرأسمالية أو الاشتراكية الشيوعية وذلك لعدة أسباب :-

1- عدم انسجام تلك المناهج مع التركيب النفسي والتاريخي والايماني للامة .

2- وجود الحاجز النفسي ؛ بسبب الظلم والتسلط الاستعماري الذي مورس من طرف أصحاب هذه المناهج .

3- عدم وجود أي قاعدة لتعاطف الأمة مع تلك المناهج ؛ بسبب الاختلاف في طريقة التفكير لدى الأمة مع كلا المعسكرين .

4- إيمان المجتمع المسلم بالإسلام، ووضوح التجربة الإسلامية لديه، وارتباطه العاطفي بها ونظافتها من العلائق الاستعمارية، ودور السماء في بنائه [32]، كلها عوامل عندما نقف على تفاصيلها، نجد – بعمق– انفراد الإسلام بإمكاناته الحضارية الهائلة .

الخاتمة

يمكن استخلاص النتائج التالية من البحث :-

1- فشل الحضارتين الماركسية والرأسمالية في حل المشكلة الاجتماعية التي تواجه البشرية، ذلك أن الحل يتوقف على التوفيق بين الدوافع الذاتية والمصالح الاجتماعية العامة، وهذا التوفيق هو الذي يستطيع أن يقدمه ((الدين)) للإنسانية، لأن الدين هو الطاقة الروحية، التي تستطيع أن تعوض الإنسان عن لذائذه الموقوتة، التي يتركها في حياته أملاً في النعيم الدائم .

2- إن الحضارات في التاريخ كما يمكن أن تكون سماوية حقيقية وربانية الدوافع والأهداف والغايات في ذات الوقت، فإنها يمكن أن تكون أرضية وضعية مادية النزعة والأهداف والدوافع، وذلك من خلال اكتشاف العناصر المشتركة التي توفر المبررات الفاعلة والدوافع الكافية في الإنسان لتقوده باتجاه البناء بقوة (سواء كانت المصلحة المحركة باتجاه السماء أو الأرض ذات أهداف إنسانية ربانية أم مادية أرضية) .

3- نهاية التاريخ عند الإمام الصدر تعني نهاية الدورة الحضارية الغربية، وهي نهاية ملازمة لمحدودية النسق المعرفي الوضعي الذي استنفد طاقاته، ونتيجة لذلك فإن الأنظمة السياسية المؤسسة على الفكر الوضعي قد وصلت إلى نقطة النهاية، ويكمن البديل في المشروع الحضاري المرتبط بالتعالي أي ((بالغيب)).

الهوامش :

(1) محمد باقر الصدر، المدرسة الإسلامية : 66.

(2) مالك بن نبي، تأملات: 156 .

(3) محمد باقر الصدر، المدرسة الاسلامية : 27.

(4) محمد باقر الصدر – فلسفتنا : 36 .

(5) محمد باقر الصدر، الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية: 65 .

(6) نفس المصدر السابق :37 .

(7) محمد باقر الصدر، المدرسة الاسلامية: 50؛ سميح عاطف الزين، الإسلام وإيديولوجية الإنسان: 55.

(8) محمد باقر الصدر، الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية : 70.

[9] محمد باقر الصدر، الإنسان والمشكلة الاجتماعية:71؛ محمد باقر الصدر، اقتصادنا:286.

[10] محمد باقر الصدر، المدرسة الاسلامية : 70.

[11] النظرية الاجتماعية الإسلامية، منذر الحكيم: 146 .

[12] محمد باقر الصدر، الاسلام يقود الحياة: 73 .

[13] منذر الحكيم، النظرية الاجتماعية الاسلامية : 149 .

[14] المصدر نفسه : 150.

[15] محمد عبد اللاوي، فلسفة الصدر : 337 .

[16] محمد باقر الصدر، فلسفتنا : 46 .

[17] التوبة : 111 .

[18] محمد باقر الصدر، فلسفتنا : 48 ؛ محمد باقر الصدر، المدرسة الإسلامية : 78 .

[19] مالك بن نبي، شروط الحضارة : 19 .

[20] محمد عبد اللاوي، فلسفة التاريخ من خلال كتابات محمد باقر الصدر : 22 .

[21] فلسفة الصدر، محمد عبد اللاوي : 333 .

[22] الحجرات : 13 **[يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ]** .

[23] محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية : 116 .

[24] عبد الحق مصطفى، الامام الصدر قراءة في مشروعه التأسيسي: 7 .

[25] الكهف : 109 .

[26] محمد عبد اللاوي، فلسفة الصدر : 291.

[27] الأنبياء : 22 .

[28] محمد باقر الصدر ،المدرسة الاسلامية : 78 ؛ محمد باقر الصدر، فلسفتنا : 48 .

[29] إن مفهوم ((معنى الوجود)) عند الامام الصدر، هو مفهوم يربط الإنسان بالغيب وبالعالم الاخر ويربط عمله بالجزاء الاخروي، وهذا المفهوم يملك القوة التعبوية والالزامية عن اقتناع داخلي (تقوى الله)، وكذلك يحرر الإنسان من الأنانية ليربطه بالمصلحة العامة .

[30] القصص : 5 **[وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ]**

[31] عبد الجبار الرفاعي، منهج التأصيل النظري في فكر الامام الصدر : 5 .

[32] محمد باقر الصدر، الاسلام يقود الحياة : 181 .

مصادر البحث :

- **القرآن الكريم**

1- مالك بن نبي، شروط الحضارة، دار الفكر المعاصر، ط3، بيروت، 2000م، ترجمة : عمر مسقاوي، تحقيق : عبد الصبور شاهين .

2- مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر المعاصر، ط2، بيروت، 2002م .

3- محمد باقر الصدر، فلسفتنا، طهران، إيران، ط10، 1981م .

4- محمد باقر الصدر، اقتصادنا، ط2، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، 1987م.

5- محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، 1990م .

6- محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ط2، 1981م .

7- محمد باقر الصدر، الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية، دار الكتاب الايراني، طهران، ط1، 1981م .

8- سميح عاطف الزين، الإسلام وايديولوجية الإنسان ،دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982م .

9- منذر الحكيم، النظرية الاجتماعية الإسلامية، مركز انماء الفكر الإسلامي، لبنان، بيروت، ط1، 2008م .

10- محمد عبد اللاوي، فلسفة الصدر، مؤسسة العارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط2، 2001م .

11- محمد عبد اللاوي، فلسفة التاريخ من خلال كتابات الإمام الصدر، مؤسسة دار الإسلام، لندن، 1996م .

12- عبد الحق مصطفى، الإمام الصدر: نموذج قراءة في مشروعه التأسيسي، دار الإسلام، لندن، 1993م .

13- عبد الجبار الرفاعي، منهج التأصيل النظري في فكر الإمام الصدر، مؤسسة دار الإسلام، لندن، 1995م .

14- مجلة الفكر الجديد، العدد السادس، الإمام الصدر : دراسات في حياته وفكره، نخبة من الباحثين، مؤسسة دار الإسلام ، لندن، 1996م .